مجلة حيدر آباد

ISSN No:

مجلة عربية إلكترونية فصلية بحثية محكمة

قسم دراسات العرب

جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدر آباد، الهند

التقاطع بين السرد والتاريخ: الرواية العراقية والاستعمار والثورة والماركسية في الهند: تحليل رواية "جلال خالد" للسيد أحمد محمود

محمد عمران[1]

ملخص

يتناول هذا البحث دور الرواية العراقية الأولى في إلقاء الضوء على جوانب الاستعمار والثورة والأفكار الماركسية في الهند، من خلال تحليل رواية "جلال خالد" للسيد أحمد محمود الكاتب العراقي. إنه شد رحلته إلى الهند هروباً من براثين الانتداب البريطاني في العراق، لكن ظل يتأثر من الشعب الهندي المكلوم فاستوحى الثيمة المحورية للرواية من أوجاع الشعب المستعمَر. يتناول التحليل المنظور الما بعد الكولونيالي للرواية. ويبرز كيفية استخدام الكاتب للسرد لاستكشاف تأثيرات الاستعمار والحركة الثورية والفكر الماركسي في الهند مما يسلط الضوء على تفاعلات معقدة بين السياسة والثقافة في الساحة الهندية والعراقية.

الكلمات المفتاحية: الرواية العراقية، رواية جلال خالد، التاريخ، ما بعد الاستعمار، الهند، الماركسية

حافز للبحث

لاحظت في معظم المناقشات الأكاديمية التي تتناول تحليل رواية "جلال خالد" غياب البُعد التاريخي للاستعمار في الهند والعراق بالرغم من تداخل الرواية معه تداخلاً مباشراً. فمست الحاجة إلى تكسير هذا الركود وفتح آفاق جديدة لمناقشة الرواية العراقية الأولى من منظور التاريخ الكولونيالي، ليكتشف التبادلُ الفكري والنظري بين الهند والمثقف العراقي ولتتبين الوظيفةُ التي لعبتها رواية جلال خالد في كشف جوانب الاستعمار والثورة في الهند. تحتوي الرواية على الجزئين، الأول منهما يختص

[1] أستاذ ضيف في جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية
mdimran258@gmail.com

بالقصة وأحداثها ومنعطفاتها، بينما ذلك، يشتمل الثاني منهما على تسجيل الرسائل التي دارت بين جلال خالد (وهو الكاتب نفسه) وأصدقائه. إن المقالة تركز على البحث عن العناصر التاريخية في ضوء خلفية التاريخ الاستعماري للهند.

مناقشة الموضوع

لو امتنع السيد أحمد محمود عن التفاعلات مع أهم محطات التاريخ وأعرض عن الاستلهام من الواقع لما ظهرت للرواية أهميةٌ بقدر ما يتم الاعتبار بها الآن. لأن كثيراً ما يتفق عليه النقاد هو قلة الميزات الفنية الإبداعية فيها، والرغم من هذا الضعف الفني يتم اعتبارها بأول نضج روائي في تاريخ الرواية العراقية حسب المعايير الفنية في وقتها. تتجاوز أهمية هذه الرواية ككونها أولى الروايات الناضجة من نوعها، فبالنسبة لي، فإن أهميتها تتعدى ذلك بكثير. إنها تتشابك مع فترة الاستعمار البريطاني في الهند والعراق، حيث تتناول قيود الاستعمار، وخطواته المدمرة، وعدم وفائه بالوعود، والتطور الرأسمالي تحت سيطرة الإمبريالية. كما تصور التأثيرات السلبية على الطبقة العاملة، ومظاهراتها ضد القمع من قبل الرأسماليين والإمبرياليين، وحياة الطبقة البورجوازية، والحركات الثورية، والحركات التحررية ضد الاستعمار. وبالإضافة إلى ذلك، فإنها تنقل راية الأفكار الماركسية من الهند إلى بغداد. على ذلك، هي وثيقة أدبية مطبوعة تساعد الباحثين في العلاقات والرحلات والتبادلات الفكرية والثقافية بين الهند البريطانية وميسوبوتاميا. هنا يناسبنا الاقتباس من رأي المؤرخ الفلسطيني حنّا بطاطو وهو يتحدث عن جوانب الأهمية لهذه الرواية:

يساورنا الشك في اعتبار روايته 'جلال خالد' أو معظم أعماله القصصية بالأعمال الفنية. مع ذلك، هو [السيد محمود] قد نجح بشكل واضح أو بلا واعي إلى حد ما، في إبراز القلق الفكري وحالة الارتباك لدي جيله وإضافةِ جديدٍ إلى حوزة معرفة العراقيين لذواتهم.[1] (ترجمتي)

1 Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq*, New Jersey, Princeton University Press, ("Princeton Studies on the Near East"), 1978, p. 394.

تراءت الأهميةُ للمؤرخ بطاطو من ناحية تاريخية للرواية. لتظل الروايات ذات الأهمية الطويلة المدى والتي تعد مرجعًا للدراسات الأنثروبولوجيا والثقافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية، من الضروري أن ترتسم عليها الملامح التاريخية وتعبر عن تجارب الشعوب وتلبي حاجاتها وظروفها الاجتماعية والسياسية، مما يجعل لهذه المقتضيات سلطانًا في تشكيل الأحداث والفترات التاريخية التي تصورها. لا أقصد بتقليل شأن الأدب المدوّن بأساليب جذابة ساحرة ذات الحِكم والنصح والمشاعر الخالدة كما في العصور السابقة، بل إنه لا بد أن تكون للأدب المكتوب من أهمية: إما أن يكون مرهونا بالنصح والحكم والعرفان والوعظة والعلوم المنيرة تنور بها العقول ويهتدي بها من يعتريه الذهولُ مثل النماذج التي توجد عند العارفين المؤدبين والكتاب الحكماء القدماء من الآداب الفارسية و الأردية والعربية، إما أن يكون ملبّيا لحاجات الشعوب المضطهدة المنتظرة ليأتي إليهم منادٍ ملتزمٌ بها يناديها إلى التوحيد ويجمع شملها ويحركها إلى الأمام لتحقيق الأهداف ويوقظها ويَصير صوتها المقموع. وأن ما هو يخرج من هذا الإطارين، بالأحرى أن يُذكر ضمن حكايات خرافية، لا مساس لها بتنمية الشعوب وتربيتها على المنهج الكريم فكرةً، وثقافةً، ومعرفةً، وخلقاً. فليُسمح للأدب فسحة الحرية للقيام بوظيفته وهي تأديب المتأدِب.

فيما يختص بالعلاقة التداخلية بين الأدب والتاريخ فهي علاقة لا تنفك، إذ يستمد الأدبُ نسيجَ الأفكار من بطون التاريخ ثم ينسجها في طابع إبداعي شعراً أو نثراً. يجدر بالذكر أن الشعر العربي القديم سمّي بـ ديوان العرب اعتباراً بمرجعيته التاريخية للشعوب العربية ما قبل الإسلام.

كان الوقت الذي كُتبت فيه رواية ' *جلال خالد* ' لحظة ذات أهمية كبيرة في تاريخ كل من الهند والعراق، كلا البلدين كانا يئنّان في براثن الاستبداد البريطاني، بينما كان السلطان البريطاني الاستعماري يتعاظم، بدأ الشعب المستعمَرُ من البلدين يشعر بالحاجة الملحة إلى الاستقلال والتحرر، فكان من الطبيعي أن يستخدم الاستعمارُ النفوذَ لكبح كل ما كان من إمكانيته تحريك الشعب إلى إرادة قوية في سبيل الحرية، فلم تعد فسحة متاحة للشعب المستعمَر في حظيرة النفوذ الاستعماري للتفكير في مواجهة الامتداد البريطاني بالقوة والسيف. لذا في هذه الظروف العصيبة لم يكن أمام الهند والعراق سوى قليل من الخيارات المتبقية، إما أن يخضع الشعب للسيادة الإمبريالية إيمانا وتسليماً، إما أن يقف موقفَ

المواجهة حتى تتهشّم قوتهم وتتمزق وحدتهم ويتكسر وجودهم أمام الهيكل العسكري البريطاني العظيم أو يكتب الله الانتصار في نصيب الشعب المقاوم ليظفر بتحقيق الغاية، إما أن يهرب الناسُ ويغادر البلادَ. كانت كل الخيارات صعبة في حد ذاتها، لكن الأخير كان أكثر صعوبة لأنه يتطلب المزيد من المال والعُدة للسفر ولوازم العيش والإقامة في الغربة أو المهجر. وما كان الأخير بوسع الجميع. إلى جانب الطبقة البرجوازية والنخبة لم يكن للشعب العام أن يتحملو هذا الوضع. فبادئ ذي بدء، تثيرنا هذه النقطة على تخمين ومناقشة انتماء اجتماعي وطبقيٍ للسيد محمود، أيةً كانت الطبقة الاجتماعية كان ينتمي إليها. اختار السيد محمودُ الأخيرَ منها لنفسه وفكّر لطعم الحرية والاستقلال في الهروب من بلده. هو يكتب عن بطل القصة جلال خالد محاكياً مشاعر نفسه:

... راضيا بالسفر رضى تشوبه اللذة، لذة الحرية، فهو سيد نفسه، يمتلك زمام إرادته، ويخرج عن بلدته بغداد الذاهلة السكرى، تحتلها الجيوش. [1]

وكذلك، إنه ليس ممن لا يقدر على أهبة السفر، بل هو قرر الرحلة هاربا من الاستعمار ابتغاء للحرية الفردية لنفسه، وأعد عدة السفر في ثلاثة حقائب بينها حقيبة كبرى، احتاج إلى حمال يحملها ويساعده على توصيلها إلى الباخورة، وقام في مومباي وكولكاتا وهما كانتا – ولا زالت –أكبر المدن الهندية وأكثرها غاليا في الأسعار ومستوى الإقامة. تجبر هذه التفاصيل الدقيقة في الرواية على اعتبار بأن السيدَ محمود كان من طبقة الأشراف في بغداد.[2]

يتحدث المؤرخ حنان بطاطو أن السيد كان من قبيلة السادة والعلماء، وكان أبوه على منصب الإمامة في جامع حيدر خانة الشهير في بغداد منذ فترة العثمانيين، ويعد المؤرخُ بطاطو قبائلَ السادة

---

1 السيد أحمد محمود، *الأعمال الكاملة للسيد أحمد محمود*، إعداد وتقديم على جواد طاهر وعبد الإله أحمد، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والفنون، 1978. ص. 275.

2 من الصعب تعيين الدافع الإساسي لتوجه الكاتب إلى مومبائ ولكن كباحث في التاريخ تساعدنا مذكرات سليمن فيضي على تخمين الدوافع التي لعبت في تحريك الشعور بالهند في قريحة الكاتب الرحال. إن الهند بسبب كونها مستعمَرة بريطانية سجلت حضورها في العراق قبل بقرنين من احتلال بغداد من حيث اتخذت القوات الاستعمارية بصرة محطة لها لنقل الموارد البشرية والتجارة والهند ولا سيما مدينة مومبائ مازالت مقر الاستعمار والمكتبة للبريطانيين بعد احتلال العراق عام 1917 ومومبائ غالبًا كانت مدينة تعتبر منفى لمن لا يتعاون مع الاستعمار في بغداد. ويساعدنا على هذه الفكرة حدثٌ مع السيد طالب (أحد من زعماء البصرة) عندما لم يرض بمقترحات السر برسي كوكس (اسم الضابط البريطاني المدبر الأعلى في احتلال بغداد) طلب العفو من كوكس والإذن في الرحلة إلى مفنى مومبائ، مما يساعدنا على تخمين الدافع عند الكاتب أن مومبائ غالبًا احتلت شهرة عند العراقيين آنذك لكونها محطة للبريطانيين في الهند وملجأ لكل من لا يتعاون مع البريطانيين في العراق ويريد الهروب بالنجاة من بطشهم. إنظر مذكرات سلمين فيضي، ص. 201-200

والعلماء من أشراف القبائل العراقية وبرجوازيتها[1]، فمن وجهة النظر هذه يمكن لبعض المؤرخين أن يفترض بأنه حينما خرج من العراق وفكر لكتابة الرواية، لم يمثل الإنسانَ العراقي العادي الذي يتألم بنفس الواقع الذي تضايق منه السيد محمود والذي تعايش معه في نفس المدينة التي باتت مؤخراً ذاهلةً سكرى، بل كان رجلا ذا كبرياء وشرافة ونجابة وذكاء يمتلك القدرة على التأهب للسفر وتحمّلِ تكاليف الغربة والإقامة في أغلى المدن أسعاراً، يحب الثياب الغالية الثمن وحلول الفنادق الكبيرة. والأمر صار من المفارقة، لما ألقى هذا الشاب النجيب الشريف الذكي عصا ترحاله على ربوع الهند وأناخ بالمدن الحضرية والعاصمية ونظر إلى حالة العمال الهنود في المصانع الكبرى والاستبداد الرأسمالي الذي قد كان أدى إلى الإضراب الشامل عن العمل في عموم الهند متفحصاً عن تبعات الاستعمار السلبية على الشعوب المقموعة، علّمته نجابتُه وأرشده ذكاءُه أن يقف هنا موقف المتألم والمتسائل الثائر من حالة العمال الاستفزازية بدلاً من الهروب منها. لأجل ذلك، صارت مشاهداته المحرجة سببَ التحفيز على إحداث البلبلة والضجة في أفكاره، مما جعل ملامح المشاعر المناهضة للاستعمار تتجلى في روايته '*جلال خالد*'. هكذا بات إيقادُ الشعور المعادي للإمبريالية والاستعمار في عواطف الجماهير ثيمةً محورية للرواية. ومن اللافت، أنه دخل في الرواية باحثاً عن حريته الفردية بعيداً عن موطنه العزيز، وخرج منها باحثاً عن الحرية لشعبه العراقي الذي قد كان أدبره قبل عام وبضعة شهور عائداً إلى مسقط رأسه العزيز.

إذن ما الذي دفع إلى نقطة التحول في فكرته؟ هذا السؤال مطروح في محله. وقد يستعين الباحثُ بما حفظ لنا السيدُ في الرواية نفسها: جلال خالد والكاتب الهندي يتحاوران ويتبادلان أطراف الحديث عن أجندة سياسية، بينما كانا يسترسلان في الحديث خاطبه الكاتب الهندي قائلاً:

ولكننا نحن الذين نُدعى بالوطنيين في الهند لا نبرحها. وههنا ههنا في هذه المملكة العظيمة المحروبة نثير المواطنين. (ص. 282)

[1] Hanna Batatu, *The Old Social*,p. 153, 394.

فيما يبدو من أن هذه الكلمات عادية ومصادفة قد تتبادل بين شخصين عند لقائهما، لكنها قد تكون إصابةً كهربائيةً وضربةً قاسيةً لوطنيةِ الرجل العراقي العربي الأصيل. دفعت الكلمات جلال خالد إلى الترجي وقال:

ومن يدري؟ لعلنا نحن أيضا نثير المواطنين في الغد! (ص. 282)[1]

بجانب آخر تحفظ الرواية لنا رسائلَ صديقه من بغداد أحمد مجاهد التي من خلالها يحرضه مجاهد على العودة إلى بغداد ليقدم الخدمة لشعبه المقاوم وأن يكون جزءاً من الثورة بدلاً من أن يبقَ هارباً منها. قد تكون هذه الدوافع التي كانت ألحت وراء التغير في فكرة السيد محمود.

نظراً إلى الهند، المحتويات القصصية في الرواية جديرة بالاهتمام ليس لأن كاتبا عربياً قد نسجها في بلد هندي أو سنسكريتي فحسب، بل على ذلك، هي نجحت في تسجيل بعض أهم المنعطفات التاريخية والوقائع التي لا تزال تتكرر أمثلتها في الفضاء السياسي في الهند ولايزال المسلمون الهنود والعمال يسقطون ضحية لها.

بينما يدور الحوار بين جلال خالد والكاتب الهندي وهما يسترسلان في الأحاديث عن موضوع الحرية والثورة ضد الكيان الاستعماري والبحث عن السبل للتخلص منه وتوحيد قوة الوعي الجماهيري والاتحاد بين أفراد الشعب المقاوم والجهاد في سبيل تحرير البلاد، قال الكاتب الهندي لجلال خالد بلهجة مؤسفة اشتكاءً من الطائفية الدينية في الهند واستياءً من استهداف المسلمين من قبل الهندوسيين المتطرفين باسم البقرة:

لا نريد اتحادا يدعو إليه بعض الزعماء وهو غير متين... نريد اتحادا صحيحا، طبيعيا لا تفرق بعده. أو لم يأتك [جلال] نبأ تلك المذابح التي كانت تقع بين الهندو [الهندوسيين] والمسلمين من أجل بقرة نحرها جزار مسلم، أو صور نفخ فيه هندوي [هندوسي] جاهل عن مقربة المسجد؟ وما دام البقر

[1]: للمزيد من الاطلاع على موضوع الإثارة والمقاومة في بغداد، يمكن المراجعة إلى سليمن فيضي، *في غمرة النضال مذكرات سليمن فيضي*، بغداد: شركة التجارة والطباعة المحدودة، 1952

مقدسا، ونحره محرم عندنا، وما دام المسلمون يأكلون لحمه، فإن تلك المذابح ستتلوها أعظم منها غدا وبعد غد. (ص. 291)

أبرزت الفقرة هذه وجاهةَ فكرة الاتحاد بين أفراد الأمة المقاوِمة كعنصر لا بد منه قبل الانخراط في حرب التحرر. ومع ذلك، تشير بشكل جلي إلى تواجد الخصومة بين الهندوسيين والمسلمين بعقود وسنوات قبل استقلال الهند، فما الذي يشهده العالم من سلسلة أحداث استهداف المسلمين في الهند باسم البقرة بشكل متزايد منذ السنوات الأخيرة، له امتداد زمني وتوجد جذورُه في أوائل القرن العشرين. وفي خلفية السيناريو السياسي والاجتماعي في الهند اليوم، هذه الفقرة من الرواية باتت الأكثر صلة بالموضوع، وتثير البحث عن تاريخ الشغب بين الهندوسيين والمسلمين. فأحداث أعمال الشغب أو قتل المسلمين باسم البقرة في أيام المضحيات قد كان بلغ عددها إلى ما يقارب المئة في ولاية بنجال منذ 1911 حتى العام الذي التقى فيه الاثنان (خالد والكاتب الهندي) ودار بينهما الحوار في كولكاتا، وهو عام 1920 حيث حصل اللقاء بينهما.[1] من جانب آخر، هذه الفقرة جزء من الحوارات دارت بين جلال خالد والكاتب الهندي حول أجندات سياسية، تبادلت الآراء عن مقومات الثورة الأساسية. فأكد الكاتب الهندي على ضرورة الاتحاد بين الهندوسيين والمسلمين في الهند ليجمع الشعب الهندي شتات قوته ويتمكن من تحريف البلد من الكيان البريطاني الاستعماري. بلهجة متأسفة ومتّزنة، جدّ الكاتبُ في القول:

إننا متخلون عن هذا الدين نحارب ثقافته لا لأنه يقتل فينا الرغبة في الحياة فقط، بل لأنه– فوق ذلك– يمنعنا من الاتحاد بأخواننا الهنود المسلمين، كما يمنعهم دينهم من الاتحاد بنا. وأنت تعلم أن الاتحاد قوة والتفرق ضعف، والضعيف لا حق له ولا استقلال. (ص.291)

[1] في هذا الصدد يمكن مراجعة إلى بعض أهم المصادر البحثية لمعرفة مدى أعمال الشغب في منطقة بنغال Suranjan Das, “Communal Violence in Twentieth-Century Colonial Bengal: An Analytical Framework”, *Social Scientist*, 18/6-7 (1990), p. 21-37; Nitish K. Sengupta, Land of Two Rivers: A History of Bengal from the Mahabharata to Mujib, Penguin, 2011, p. 347-348; Shabnum Tejani, "Cow Protection, Hindu Identity and the Politics of Hurt in India, c.1890–2019", *Emotions: History, Culture, Society*, 3/ 1 (2019), p. 136-157; Review of Literature on Mob-Lynching in India accessed from https://www.legalserviceindia.com/legal/article-6782-review-of-literature-on-mob-lynching-in-india.html

تثيرنا الفقرة هذه الاهتمامَ بأسئلة حول الكاتب وخلفيته الأيدولوجية وتناقش المحطات التاريخية الصدامية بين أفراد الشعب الهنود، وكناقد أدبي محض تكفينا الإشارة إليها فحسب. لكن بالعكس، إنها تجبر المؤرخ على سبر أغوار التأريخ. بخصوص مواصفات الكاتب، يصفه السيد محمود في الفصل الثالث من الرواية بأنه يرتدي أثياب فرنجية الطراز ونظارة أميركية فاخرة وهو يكتب في صحيفة ثورية رعاها الزعيم بال جانجادهار تيلاك[1] وفي موضوع آخر يصف الكاتب الهندي الدين باعتباره أفيون للناس. استنادًا إلى هذه المعلومات المحددة، يُظهر التحليل العميق أن الكاتب ينتمي إلى الطبقة المثقفة البرجوازية والطبقة العليا، وفقًا لتصنيفات الطبقات الاجتماعية الهندوسية. ويتأثر بالنظرية الماركسية من الناحية الإيديولوجية، ويتبع أفكار مهاتما غاندي من الناحية السياسية. هو يرتدي الثياب الغالية أفرنجية الطراز ونظارة أميركية في حين أنه يريد تفريغ بلده من أي أثر للأفرنجيين المستعمِرين ويحارب وجود الكيان الاستعماري، من المفارقة أنه من جانب آخر، يمثل ثقافة الاستعماريين في ثيابه ونظارته ويُثري اقتصادهم بشراء الثياب الأفرنجية والنظارية الأميركية. هذا تمثيل في الرواية لما نظّره هومي ك. بابا من نظربة تناقض ambivalent في دراسات نظرية ما بعد الكولونيالية.[2]

فيما يتعلق بتخلي الكاتب الهندي عن الدين واعتباره بالأفيون للناس فهذا يساعد المؤرخ على التفحص في الجزور التاريخية لمعرفة مدى تطور وانتشار النظرية الماركسية في منطقة أقصى الشرق الهندي. بحلول الوقت الذي كُتبت فيه الرواية، كانت الأيديولوجية الماركسية قد فاض أثرها في فضاء المنطقة واستولت على عقول الطبقة المثقفة ومرت عليها ثماني سنوات تقريبا، لأن أول ظهور لها كان على أرض الهند في عام 1912 لما نشرت مقالة 'كارل ماركس: روحاني جديد' في دورية صادرة من مدينة كولكاتا.[3] هنا يمكن للباحث المؤرخ التوثيق بين التاريخ وبين الرواية.

حضور إضرابات العمال

---

1 Bal Gangadhar Tilak

2 For more on ambivalence theory, see, Homi K Bhabha, *The Location of Culture*, London and New York: Routledge, 1994, p. 85-92; Muhsin Jassim al-Musawi, *The Postcolonial Arabic Novel: Debating Ambivalence*, The Netherlands: Brill, 2003

3 Har Dayal, "Karl Marx: A Modern Rishi", *The Modern Review* [Calcutta], 11/3 (1912), P. 273-286.

من بين العناصر البارزة والمثيرة للاهتمام في الرواية، تتجلى أهمية التركيز على تاريخ الهند البريطانية، وبخاصة تداعيات الاضطرابات العمالية المستمرة التي اندلعت في مختلف أنحاء البلاد. هذه الفترة كانت فيها أزمات العمال الهنود تضع أساس تاريخها وكان الاستبداد الرأسمالي بطبيعته الاستغلالية قد اضطرم في المصانع. وقد اكتوت قلوب العمال بالكراهية والعدوانية تجاه النظام الاستبدادي. إن الإمبريالية والرأسمالية هما فرعا أرومة واحدة وهي خطة الاستعمار. فكان لا بد من ظهور هؤلاء العمال وحالتهم البائسة في الرواية كي تكون الفكرة المناهضة للاستعمار أكثر قوةً وتأثيراً وتحريضاً. ومازال التعاطفُ والتضامن مع العمال التي قد كانت مسّتها شدةُ البؤس والكآبة، وَكْدَ الكاتب في طيلة الرواية. تصور الرواية واقع العمال في مصانع مدينة مومبائي:

ولو قدر لك أن ترى العامل في المعمل، وهو مرتد ثوبه البسيط العادي يقتله الحر والعمل المستمر المنكب عليه مستسلماً، وعلمت أن أجره لا يكفيه لأسفت ولعطفت عليه ولشعرت بالنفرة من تلك النظم الظالمة القاسية التي تستغل الجموع لأجل الفرد الذي لا ينماز عنها بعضو من أعضاء الجسم.(ص. 278)

نجح الكاتب العراقي في تصوير العامل بأنه ضيق المعاش وبذيئ الهيئة والرياش في معامل وقطاعات الصناعة. لم تنته هذه التجربة الصارمة لبطل القصة في مومباي، بقى هناك لمدة عام قبل أن يتوجه صوب الشرق الهندي حيث حطّ بمدينة كولكاتا، كان هناك حيث صادف حركات العمال والإضرابات التي طغت على المدن، مما زاد من تجربته:

جاء [جلال خالد] المدينة [كولكاتا] ظهراً فألقاها بمومبائي الثانية بغنى أغنياءها الفاحش وفقر الشعب. مكث أسبوعاً كاملا وكانت المدينة في هدوء. ثم سمع أن بين عمال المعالم حركة، وأنهم يريدون زيادة الأجور لقد أضربوا فأخذت الحكومة تعد العدة لقتل حركة الإضراب يؤيدها ذوو رؤوس الأموال. واحتشد العمال في إحدى ساحات المدينة يحاولون إعلان أمرهم والمطالبة بحقهم. ففاجأهم رجال الشرطة فاقتتلوا. وكان خالد على مقربة من ساحة المعركة يتمنى أن يجد سبيلاً إلى شهودها. (ص. 279)

تزامنت تجربة الكاتب العراقي مع فترة عصيبة في تاريخ العمال الهنود. ففي ظل تطور المصانع ونمو الرأسمالية بقوة، برِح خفاءُ سوء التعامل وبرزت معاني الظلم تجاه طبقة العمال مما دفع بتاريخ الإضرابات العمالية ضد استغلال الرأسمال في المدن الصناعية إلى الظهور.

بناءً على هذه الإشارة إلى حركة العمال في كولكاتا وحالة البؤس في معامل مومباي، يترجح التخمين أن حركة الإضراب من قبل عمال الترام (Tram workers) في كولكاتا وإضرابات عمال معامل الجوت والقطن في مومباي قد شكلت مصدر إلهام أو موضوعاً للإشارة في النص الروائي. ذلك بناءً على إشارات ودلالات تاريخية للإضرابات التي توثق الموقفَ وتساعد على النتيجة. جاء السيد محمود إلى الهند حوالي أواخر شهر آذار (مارس) أو أوائل نيسان (إبريل) من عام 1919 ثم وصل إلى كولكاتا عام 1920 بعامٍ بعد وصوله إلى مومبائي، وفي العام ذاته انفجرت الإضرابات. بحلول شتاء عام 1920 تم تسجيل العدد الوافر من الإضرابات العامة للعمال في أنحاء البلد مما دفع إلى توثيق تقرير الهيئة الملكية عن العمال في الهند:

قبل شتاء عام 1918 و1919 نادراً ما كان يحدث أي إضراب عن العمل في المصانع الهندية. من حين إلى آخر تم الإضراب عن العمل في أعمال سكك الحديد أو في الفروع الأخرى من المصانع. مع ذلك، أكثر العمال ما كانوا يعرفون معنى الإضراب. (ترجمتي)[1]

تسلح السيد محمود برؤية معادية للاستعمار في طول روايته، فكان من الدوافع الطبيعية أن يستمد أفكاره من تجارب شدائد الاستعمار ويستوحيها بعناية في هيكل السرد. على هذا المنعطف، نجد الرواية يغلب عليها الطابع التاريخي والواقعي، وهنا تتداخل الرواية مع أهم المحطات التاريخية للهند.[2] يكفيك من أهمية هذين الحادثين بأن أمثلتهما لا تزال تتكرر في الفضاء الاجتماعي والسياسي في الهند،

1 Royal Commission on Labour in India Report, Government of India, Central Publication Branch, p. 333. Accessed from south Asian archives on 10 January 2022.

2 قد تكون المصادر المهمة في هذا الصدد هي:
K.N. Parameswaran, “Labour Unrest in India”, in *The Modern Review: January to June 1920*, ed. Ramananda Chatterjee [Calcutta], 27/1-6 (1920), p. 632-634; J.C. Kydd, “The Problem of Industrial Unrest in India”, *The Calcutta Review October 1920* [Calcutta], 302 (1920), p. 349-358, accessed from South Asian Archives; Siddhartha Guha Ray, "Tramworkers of Calcutta: Some Reflections on Their Unionisation and Political Experience1920 to 1930", *Social Scientist*, 14/5 (1986), p. 15-32.

من هذه الوجهة، صارت الرواية على جانب عظيم من الأهمية في سياق التاريخ الاستعماري للهند لإنشاءها العلاقة بما يتكرر حتى اليوم.

في حين كان السيد محمود حِلّا بالهند كان التاريخ في الهند حافلاً بالنوائب بما فيها مصيبة الاستعمار الأجنبي التي كانت تكاد أن تُنسي المصائب الأخرى، لكن إضافةً إلى ذلك، كان المسلمون في مواجهة التشاكس ونوعٍ من الاشتباكات بين الهندوسيين والمسلمين. فكان للمسلمين إما أن يكفّرو بعقيدة الوطنية ويبقو خاضعين لدينهم المانع عن الموالاة مع غير المسلمين في سياق الوضع السياسي الهندي آنذك ويعملو لأجل إعادة الخلافة العثمانية، إما أن يؤمنوا بالوطنية التي تأمرهم بالمساواةِ والموالاةِ بينهم وبين الهندوسيين والخضوعِ لسيادة الهندوسين المتوقعة باسم الوطنية والتسامح والمصالحة القومية. برز حزب اتحاد المسلم تحت قيادة محمد على جناح في مواجهة فكرة سياسية لحزب المؤتمر (كونغرس)، فقاد هذا الوضعُ المتأزم إلى الجديد من الجدل بإثارة موضوع الوطنية والقومية والإسلام بين أوساط المسلمين. راح الإعلامُ الأردي (اللغة الأردية) يمنح لهم الوسيلةَ لترويج الأفكار ومناقشة موضوع الوطنية والقومية والدين، هذا موضوعٌ مثيرٌ كان يشغل الخواطر. جلس جلال خالد في إحدى الفنادق بكولكاتا وبدأ في قراءة مقالٍ علمي في الصفحة الأولى من إحدى الصحف الأردية، وعنوانُه 'الفرق بين الإنسانية والقومية'. السيد محمود استمر في توسيع نقاشه حول هذا الموضوع على مدى صفحة ونصف، بهدف توثيق المعلومات المتعلقة بالموضوع الذي شغل اهتمام المسلمين في الهند، وذلك لتعميق فهم الأجيال القادمة لهذه القضية الهامة والمعقدة حوالي عام 1920.[1] منذ تأسيس حزب اتحاد المسلمين الذي عُرف بمسلم ليغ باللغة الإنجليزية في عام 1906 حتى الانقسام وولادة دولة باكستان عام 1947، ظل موضوعُ الوطنية والقومية من المنظور الإسلامي يشغل اهتمام مفكّري المسلمين بالنقاش العلمي في الكتابات والخطب الدينية والسياسية.

علاوةً على ذلك، الرواية حفظت لنا ذاكرة مجزرة جليان ولا باغ، هذه الحادثة ناطقةٌ بأقبح السُبّة على صفحة تاريخ الاستعمار وهو قتلُ الهنود بأسلوب أبشع في إحدى من نواحي ولاية بنجاب.

---

[1] أنظر الصفحة من 287 -289 من الأعمال الكاملة للسيد أحمد محمود.

هذه الحادثة قد شغلت الخواطر ونكّست النواظر، وخاف جلال خالد أن تتكرر الحادثة ذاتها مع العراقيين في بلدهم المتأزم تحت أغلال الاستعمار نفسه، يسرد لنا السيد محمود محاكياً عن جلال خالد والكاتب الهندي:

وكانا [جلال خالد والكاتب الهندي] يمشيان الهوينا، فساقهما الحديث إلى مذبحة أمرتسار إذا هاج الهنود سنة 1919 فاجتمعوا في إحدى ساحات المدينة فمنعم جنرال داير الانكليزي، فأبوا أن يتفرقوا، فأطلق جنوده عليهم النار بأمره فقتلوا منهم 379 رجلا وجرحوا 1200. وكانا يتقعان أن تكون ضحايا الهياج في العراق أضعاف هذه الضحايا وقطعا الحديث وهما يحوقلان ويلعنان الاستعمار. (ص. 298-299)

لما ذا ساق الحديث إلى حضور هذه المذبحة في الرواية؟ حضور هذه المذبحة في هيكل السرد يحثّ الباحثَ المؤرخَ على اعتبارها بِعنصر مهم من عناصر التاريخ الاستعماري. لأن الكاتب يهمه في الرواية ترويُج الأفكار المعادية لوجود الكيان الإنكليزي ويحاول تشكليل رؤية القارئ العربي المثقف على أساس فكرةِ الوطنية الخالصة التي لا تقبل الوجود الأجنبي على أراضي السكان الأصليين. وهذا قد يسميه المحللون السياسيون بعملية التسييس في بيانات سردية[1] من حيث يخصص السيدُ محمود الحديثَ لأبرز أبعاد الاستعمار وجوانبه التي يمكن أن تخلق أفكاراً بغيضةً تجاه الانكليزيين المستعمِرين على آفاقِ أفكارِ القارئ العربي وعقليتِه.

خلاصة البحث

الرواية لا تنتهي بالإشارات التي تم البحث عنها في المقالة هذه، بل لها صلة بالمزيد من المنعطفات التاريخية التي لها محطات بارزة في باب الحديث عن الاستعمار وتاريخه في الهند والعراق. هذه المقالة تستهدف الاختصاص بإبراز بعض العناصر التاريخية من فصول الاستعمار في الهند فحسب. إن

---

[1] Process of politicization in literary narratives. For key work nearby the topic on anchoring the relationship between the politics, power and literature, someone can refer to Maureen Whitebrook, *Identity, Narrative and Politics*, London and New York: Routledge, 2001; Edward Said, *Orientalism*, New Delhi: Penguin Books India, 2001; Michel Foucault, *Power Knowledge Selected Interviews and Other writings*, Ed. Colin Gordon, New York: Pantheon Books, 1980; Ikram Masmoudi, *War and Occupation in Iraqi Fiction*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 2015; Michael J. Shapiro, Literary Production as a Politicizing Practice, *Political Theory*, 12(3), August 1984: 287-422

الحديث عن الاستعمار حديث استفزازي، فهذه المقالة تهدف إلى إثارة موضوع العلاقة بين تاريخ الاستعمار والرواية العراقية وتدعو إلى مناقشة جوانب تاريخية للرواية العراقية الأولى بصرف النظر عن النقائص الفنية فيها. لكل تاريخ ميزة وميزة تاريخ الرواية العراقية أن بدايتها متصلة بموضوع تحريض القارئ العربي على إحداث الثورة لملاشاة وجود الكيان الانكيزي الاستعماري وطرده من أراضيهم. وكذلك لا بد من أن يكون لرواية أو قصة أو مسرح 'تحفيز' ما يسميه نقاد الأدب الإنجليزي بـ motivation ففي مضمار النقد الأدبي يُعنى بالتحفيز الشيئُ الذي يعمل وراء الفكرة مُلحّاً على الكتابة ويحدد غاية الكتابة والسرد. في الأدب يحدد ' التحفيزُ' السببَ وراء تصرفات الشخوص وتعاملهم وسلوكياتهم مع الأحداث في الرواية أو القصة أو الدراما. يتميز هذا النوع من السلوك بموافقة الشخصية واستعدادها لفعل شيء ما. ظل الانتقامُ دافعاً مستمراً في مسرحية هاملت لوليم شيكسبير وهو الدافع ما يسميه النقاد الأدبي بـ ' التحفيز'. أما التحفيز في رواية جلال خالد فهو البحث عن الحرية، الحرية من مخالب الاستعمار الجائرة وهو لاينالها إلّا بعد خروج الاستعمار غير رجعة، فيتمثل التحفيز الثاني في اكتساب معنويات إنهاء الاستعمار. وهو موقفي في مناقشة الرواية.

بالرغم من أن الرواية تخلو من الترتيب الفني للقصص الناضجة، نتمكن من تحديد الدافع الأساسي أو التحفيز الذي يتحكم وراء التفكير للكتابة. قضي السيد محمود أكثر من عام في الهند وتمايل في مشيته على شوارع مومباي وكولكاتا، وكان لديه الكثير ليكتب عنه في الرواية، لكنه تنكّب ثرثرة الكلام في الوصف والسرد واكتفى بما يعاونه فى إنشاء فكرة معادية للاستعمار وتقوية استياء بين الأوساط الشعبية. في اليوم الخامس وعشرين من شهر يوليو (تموز) حاز السيد محمود إلى وطنه ولجأ إلى حصنه ويوم نزل على بصرة تلقى خبراً أنساه مصائب السفر وهو أن الاستعمار الفرنسي قد استولى على عرش دمشق. تأوّه وتلهّف وقال جملة تاريخية (لقد احتل الفرنسيون سوريا العربية، وما كان للعرب جيش يدافع عن دمشق العاصمة سيل الغزاة الفاتحين) ص.309 السيد محمود ما نمّ الكلامَ في المواصفات المبالَغة في عالم المتخيل، بل حبّذ الطابعَ الواقعي والتاريخي ليقص القصةَ للشعب العراقي. ومن ناحيةٍ أخرى تساعد الرواية على مناقشة التبادل الفكري بين البلدين حوالي عام 1920 وكذلك

هي تساعد على البحث عن تطور الماركسية في الهند وتأثر الرجل العراقي بها والذي بات مؤخراً السببَ في تطور الفكرة الماركسية في بغداد. فمن البُعد التاريخي لا ينبغي لنا أن لا نؤبَه لها.

أما تقييم الرواية من حيث الموضوعات فهي تمثل نوعاً من الأدب الثوري والإيديولوجي. أما خصائص أسلوبه في البنية السردية فهي سيطرة مواجهة الاستعمار وموضوع الغربة، وبساطة الأسلوب والنص والتدفق في الأفكار والتأثر من الوضع المكلوم، قراءة الرواية تضمن لنا شعوراً مناضلاً للاستعمار وتطلب من النهوض في سبيل الحرية وعيش الكرامة والاستقلال.